ب ــ النهر الجماهيري الهادر الذي يغتسل فيه المثقفون من آثار سياط الجلادين على اجسادهم . فالقمع يولد اليأس الى حين ، ولكن الحركة الجماهيرية لا تتوقف ، وهي في سيرها نحو أهدافها ، تستطيع ان تداوي الجراح الفردية التي تظهر على اجساد المناضلين .

٢ ــ الارض وعلاقة الانسان بها :

اذا كان الادب الفلسطيني يحاول ان يرسم اطاراته حول الارض الفلسطينية ، فهذا يعود الى طبيعة القضية الوطنية الفلسطينية نفسها . فالهجرة الجماعية ، تجعل من العودة الى تراب الوطن حلمها اليومي ووقود نضالها الرئيسي ، كما ان الاقلية العربية التي بقيت داخل جدران السجن الاسرائيلي ، لا تجد مبرر وجودها وسط الظلام الذي يحيط بها سوى مزيد من التعلق بالارض . مزيد من الالتصاق بها والذوبان في احشائها . فحمدان الراعي الذي تحيط الذئاب بأغنامه من كل ناحية وتفتك بها ، يرفض ان يهاجر مع جموع ابناء القرية الذين فضلوا الرحيل « قلت لك يا ناجي ، بطلعش من هالبلد ، لو بفطس بزقاقاتها وبلقاش مين يدفني ! حمدان قال كلمته وبرجعش فيها ... بدك تشرق يا نذل شرق ، اما حمدان ، درب النذال ما هيش دربه ، وعمره ما نقل فوقها قدم . براسك يا ناجي هالموال غنيه ! بيجيك يوم يا ناجي توكل ايديك فيه ندامة ! مية الغربة عشاربها حنظل يا ناجي ، وبرسيمها الاخضر عالغنم عليق » . هذا الاصرار القروي، الرعوي على البقاء في الارض ، ترافقه عامية فلسطينية ، بسيطة . فالفلاح لا يعرف المعادلات الحسابية . انه مقتنع بأرضه حتى لو سرقوها منه كما في قصة « الفرس » فانه لا يبيع فرسه ويرحل . فالفرس تلد مهرا . والتفاؤل والاصرار على الصمود يأتي من فعل الطبيعة نفسها . الطبيعة قادرة على البقاء وعلى التجدد . الفرس تلد مهرا رغم ان الارض سرقت بأمر اداري ، فان الفرس تستطيع ان تكتشف بقعة ارض عليها تقف وتستمد الحياة .

لقد استطاع فياض في قصة « أم الخير » ان يحول الرمز الى فعل ايمان بالمستقبل . فالحية التي دست السم في اللبن وقتلت عائلة « أم الخير » وملأت جسدها بالقروح ، هذه الحية استطاعت ان تجبر أهل القرية على الهرب الى الحقول والسكن في الخيام . لكن حسن الذي أحب أم الخير عندما كان يافعا وبقي مخلصا لحبه رغم مرور السنين الطوال . حسن بقي مع ام الخير ومع قروحها التي تنقل العدوى الى جسده . بقي امام الجروح حتى ماتت ام الخير . لكنها فعليا لم تمت . تحولت الى جذع يرويه حسن من قروحه الدامية « وفي صباح اليوم التالي ، كان برعمان أخضران يتفتحان حيث كان الوشمان على غمازتيها ، وقد اخذا يكبران يوما بعد يوم ويتفرعان ، ومن اطرافهما كانت تسقط عند كل صباح دمعتان ، على قروح حسن التي اقعدته تحتها ، فتشفى عند كل صباح قرحتان » . هنا تتحول علاقة الانسان بالارض الى علاقة صوفية ، علاقة الدخول الى الجراح ومعانقتها والبقاء في داخلها . فأم الخير ستتحول الى شجرة خضراء الغصون ، اذا بقي الانسان متمسكا بها يسقيها صموده واصراره .

اما في قصة « الكلب سمور » فان الارتباط النضالي بالارض يصبح هاجس الكاتب الرئيسي ، فالتاريخ النضالي الطويل الذي صنعه الشعب الفلسطيني في معاركه ضد المحتلين الانكليز ثم ضد الغزاة الصهاينة ، ينتقل الى الكلب سمور الذي يكلمه الكاتب وكأنه انسان يناضل من أجل قضية يعرفها جيدا . فالكلب يتعود على محاربة الجنود الانكليز، ثم ينتقل الى محاربة الجيوش العربية التي دخلت فلسطين سنة ١٩٤٨ دون ان تحارب . وحين يصل اهل القرية فان الكلب يتركهم ويعود الى البيت ليحرسه « ــ لا حول ولا قوة الا بالله ... رجع سمور عالبلد يا قاسم . ورد قاسم بصوت كسير : ــ على الاقل رجع يموت في الدار يابا... مش مثلنا ، نموت مهججين من الجوع والعطش ، لا بيت ولا مأوى » .

في قصص هذه المجموعة ، يعلو صوت الارض ، ليغطي جميع الاصوات الاخرى . فصوت الانسان لا يصير مسموعا ، الا اذا كان جزءا من صوت الارض . وقيمة الانسان لا تأتي الا من خلال تعلق رجليه بالارض وانغراسها فيها . هذا الهاجس الدائم في قصص هذه المجموعة هو الذي يميزها فعليا . لكن الارض ليست واحة رومانسية يلتجىء اليها المحارب ساعة القيلولة . انها هي ساحة المعركة ، لان المعركة تجري باسمها . من هنا ، ورغم الصوت الفلاحي